المحاضرة السابعة

السرد في أدب الرحلات(*)

عناصر المحاضرة:

أولا. أسباب ودو افع الرحلة عند المسلمين

ثانيا. خطاب الرحلة (البنية السردية للنص الرحلي)

ثالثا. مسرد لمشاهير الرحالة المسلمين

رابعا. التطبيق على نصين من أدب الرحلة

(*)

المحاضرة السابعة(*)

السرد في أدب الرحلات

"السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب"

حسن العطار شيخ الأزهر.

ألحقت كتابات الرحالة والبحارة بالفنون الأدبية لما تحتويه من وصف دقيق، وأسلوب قصصي ممتع، وإيقاع شعري مؤثر، فهي ملتقى الفنون والآداب، تتداخل فيها الأنواع والأجناس، مما جعلها نصوص عصبية على التصنيف "تجتمع في أدب الرحلات أساليب الفنون (القصة، الشعر، المسرحية، المقالة...) وموضوعاتها كلها دون أن تضبطه معاييرها، أو أن يخضع لمقاييسها"[1]. وهي نقطة التقاء في كتابات الراحلة المسلمين وغير المسلمين[2]. فكتابات الرحالة مادة دسمة يستفيد منها المؤرخ في رصد أحداثه التاريخية والجغرافي في وصف البلدان، وكشف الأقاليم، والأديب لما فيها من وصف دقيق وأسلوب بديع. يؤكد هذا المعنى محمود حسين حسني فيقول: "الرحلات فيها مادة وفيرة ما يهمُّ المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصادي ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"[3].

(*) وممن كتبوا في أدب الرحلات، نذكرالرحلات لشوقي سيف، أدب الرحلة لحسين نصار، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد ؤحسن، الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة، أدب الرحلة عند العرب لحسني محمد حسين، أدب الرحلات لحسين محمد فهيم، أدب الرحلة لفؤاد ؤقنديل.

[1] حسني محمود حسين، أدب الرحلات عند العرب. نقلا عن حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص17.

[2] نجدها في رحلات: ابن جبير، والمقدسي وابن بطوطة، كما في رحلات: ماركو بولو وكريستوفر كولومبس وفرديناند ماجلان.

[3] إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص85.

أولا. أسباب ودوافع الرحلة عند المسلمين:

السفر والترحال سلوك إنساني مارسه منذ العهود الأولى، فالنفس البشرية تتطلع دوما إلى الاكتشاف والتجدد، فالعرب شأنهم شأن الأمم الأخرى مارسوا هذا السلوك الإنساني، فقد ذكر لنا القرآن الكريم: "رحلتي الشتاء والصيف"؛ رحلة الشتاء إلى بلاد الشام ورحلة الصيف إلى اليمن، كما تضمنت قصائدهم الشعرية في العصر الجاهلي توصيفا دقيقا لرحلاتهم وما شاهدوه فيها.

ولما جاء الإسلام أقرّ الرحلة بل فرضها أحيانا ودعا إليها (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ...**)[1]، وفي آية أخرى (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا**)[2]. فقد نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على المرايسة في البر والبحر من ناحية أخرى[3] وفي الحقائق التي أكدها ابن خلدون في مقدمته: "والرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[4] ويمكن أن نجمل أسباب ودوافع الرحلة عند المسلمين في هذه النقاط:

1- الدوافع العلمية:

تعد الرحلات من المصادر الأساسية في تلقي العلوم والمعارف وهذا ما أكده الشيخ حسن العطار في قوله: "السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب"[5] فالمسافر بعد سفره ليس هو قبل سفره، لأنه في رحلاته يلقى العلماء والأدباء، ويشاهد الأقاليم والبلدان، فالرحلات أكثر المدارس تثقيفا للإنسان[6]. فابن بطوطة في رحلته الطويلة والتي دامت ما يقارب تسع وعشرون سنة، اكتشف فيها كثير من المغالق الجغرافية في إفريقيا، كما أبدع في توصيف كثير من المدائن الإسلامية، فقد أبرزت رحلة ابن بطوطة "الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية"[7]،

---

[1] سورة العنكبوت، الآية 20.

[2] سورة الملك، الآية 15.

[3] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص23.

[4] ابن خلدون، المقدمة، ص407.

[5] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص19.

[6] المرجع نفسه، ص21.

[7] المرجع السابق، ص28.

وهذا المقدسي –الرحالة الكبير– يفصح في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عن منهجه وخطته في جمع المادة الرحلية، فيقول: "وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء وخدمة الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد المتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة في كل أحد..."[1].

فالرحالة المسلمون لم يكتفوا بما وصلهم من معارف وعلوم، بل هم الذين يرحلون إليها قصد استنباطها من مصادرها، يقول أبو الحسن المسعودي: "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نما إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه"[2]، فكان علماء الحديث –مثلاً– يقطعون الفيافي قصد التحقق من رواية حديث نبوي واحد.

2– الدوافع الدينية:

تعد عبادة الحج عبادة رحلية، فالناس يرحلون إلى مكة من كل فج عميق، كما قال القرآن الكريم: (**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ**)[3] فيلتقي الناس في هذه الديار المقدسة للعبادة وتعلم أمور الدين، بعد أن قطعوا أشواطا وحلّوا بديار وأقاليم ومدائن، فالحجيج حين يعودون من رحلتهم الدينية، يسهمون بما ينقلونه من أخبار ومشاهد في توفير مادة تاريخية وجغرافية واجتماعية ودينية وثقافية، ولما شاعت رحلات الحجيج أقام حكام الأقاليم "على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وعمدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية مساليكه"[4]، هذا وقد سجل لنا التاريخ رحلات قصد الحج لكنها لم تنتهي بانتهاء هذه الفريضة بل استمرت من إقليم لآخر، كما هو الشأن في رحلة ابن بطوطة الذي بدأ رحلاته يوم الخميس الثاني رجب عام 725هـ من طنجة قاصدًا بيت الله الحرام، فانتهى به الأمر إلى ترحال وراء

---

[1] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقانيم، ص2–3.

[2] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط2، 2010، ص21.

[3] سورة الحج، الآية 27–28.

[4] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص90.

آخر، وسفر إثر سفر ورحلة تعقبها أخرى، وإقامة هنا وهناك في ربوع بلاد امتدت من المحيط الأطلسي غربا إلى بحر الصين شرقا... واستغرقت ما يقرب من تسعة وعشرين عامًا، وقد جمعت مشاهده ورحلاته في كتاب تحت عنوان "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" أملاه على محمد بن جزي الكلبي بتكليف من السلطان أبي عنان المريني[1] حاكم المغرب حينذاك.

3- الدوافع الاقتصادية:

لم يكن طلب العلم أو أداء فريضة الحج وحدهما الدافع وراء رحلات المسلمين، بل ثمة دوافع أخرى أهمها الدوافع الاقتصادية، فالخروج قصد التجارة، وتبادل السلع أسهمت إسهامًا كبيرًا في تأصيل أدب الرحلات. ولعل من أشهر الرحلات البحرية التجارية في المحيط الهندي التي نمت خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري هي رحلة التاجر سليمان السيرافي... الذي أبحر عدة مرات إلى الهند والصين ودوّن جانبا من هذه الرحلات ونقلها عنه مواطن له يسمى أبو زيد السيرافي في كتاب سماه (سلسلة التواريخ) فعد رائد الرحلات البحرية في العالم العربي، ولم يكن عالما فلكيا أو جغرافيا أو بحاثة أو ملاحًا، ولم يكن مؤرخًا أو سفيرًا أو أميرًا وإنما كان تاجرًا في رحلاته المتعددة قصد جلب السلع وبيعها فكان يحرص على وصف الجزر والبحار والجبال وما عاينه من أخطار.

هذه هي الدوافع الأساسية وراء أدب الرحلات وإن كان ثمة دوافع أخرى[2] إلا أنها أقل شأنا منها، شأن الدوافع السياحية، والطبية والسياسية.

[1] ينظر المرجع نفسه، ص27.

[2] للتوسع ينظر، فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص98 إلى 108.

ثانيا: خطاب الرحلة (البنية السردية للنص الرحلي):

النص الرحلي نص عصي على التصنيف، لما يتميز به من انفتاح وقدرة على امتصاص الأنواع السردية والأجناس الأدبية والمعارف العلمية، نجد فيه القصص، والسير والعجائبي، كما يحفل بالنصوص الشعرية والمعارف الجغرافية والأحداث التاريخية.

والنص الرحلي باعتباره خطابا سرديا تتحكم فيه صيغة الوصف عكس الأنواع السردية الأخرى التي تتحكم فيها صيغة السرد شأن المقامات والسير الشعبية. وبين الخطابين تمايز: "فالسرد فعل زماني، فهو يتحقق في الزمان... والوصف فعل مكاني، إنه توقيف لزمان السرد لمعانقة ثبات المكان"[1]. فالصيغة المهيمنة هي التي تتحكم في نوعية الخطاب. وعلى هذا نجد في خطاب الرحلة الوصف هو المهيمن وهو المؤطر للزمان، فالرحلة: "خطاب وصفي لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين"[2] ولهذا يقترب أدب الرحلة من علم الجغرافيا. في حين تقترب الرواية من علم التاريخ، فنجد أنفسنا في "السرد أمام عوالم خطابية قابلة للتخييل، وفي التقرير بصدد عوالم خطابية قابلة للتجسيد"[3]. لأننا في الخطاب السردي نستحضر الزمن الماضي فيبرز عنصر التخييل وفي الخطاب الوصفي نستحضر (الآن) فيبرز عنصر التجسيد.

بقي أن نشير إلى نقطة مهمة، وهي أننا في أدب الرحلات أمام ثنائية هي الفعل الرحلي الذي تقوم به ذات معلومة: ابن بطوطة أو المقدسي أو بن جبير، وبين خطاب الرحلة، أو ملفوظ الرحلة، والذي يهمنا في علم السرد هو خطاب الرحلة، الذي يقوم بـ"تلفيظ الرحلة" ولخطاب الرحلة بناء مخصوص "فخطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية. فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها وزمن الخروج ومكانه، وكلما انتقل الرحالة في المكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحولات، وصولاً إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع إلى نقطة البداية"[4].

---

[1] سعيد يقطين، السرد العربي (مفاهيم وتجليات)، ص195.

[2] المرجع نفسه، ص196.

[3] المرجع نفسه، ص200.

[4] المرجع نفسه، ص207.

ومن سمات الخطاب الرحلي التي تميزه عن السرود الأخرى أن "المتكلم في خطاب الرحلة يزدوج إلى راوٍ ومبئر في آن واحد"[1]. فالذات في أدب الرحلات (ابن بطوطة أو المسعودي أو المقدسي) هي الممارسة للفعل الرحلي وهي نفسها التي تتحدث في هذا الفعل.

وعليه نخلص إلى أن خطاب الرحلة هو خطاب وصفي (البعد المكاني) يقوم بتلفيظ الرحلة (الفعل الرحلي).

ويمكن أن يتأخر خطاب الرحلة (ملفوظ الرحلة) ولا يواكب الفعل الرحلي، كما هو الشأن في رحلات ابن بطوطة التي لم تجمع ولم تكتب إلا بعد عودته من رحلته الطويلة والتي دامت تسع وعشرين سنة، قام بعد عودته بإملائها على محمد ابن جزي الكلبي بتكليف من السلطان أبي عنان المريني.

والتزاما بحدود معالم المادة (جماليات السرد العربي القديم) لم تتحدث عن الرحلات في أدبنا الحديث عامة، والأدب الجزائري خاصة، وهي المادة التي قد نعود لها في مباحث ومؤلفات أخرى لأهميتها من جهة وغزارتها من جهة أخرى.

كما نشير إلى أن من تمظهرات الرحلة في أدبنا القديم ما يعرف بالرحلات المعنوية أو الخيالية كما في: رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ورسالة التوابع والزوابع لأبن شُهيد.

[1] المرجع السابق، ص212.

ثالثا. مسرد لماشير الرحالة العرب(*):

القرن	الأعلام	المصنفات
الثالث الهجري التاسع الميلادي	– محمد بن موسى المنجم (ت227هـ) – سلام الترجمان (ت227هـ) – سليمان التاجر (ت237هـ) – ابن وهب القرشي (ت256هـ) – اليعقوبي (ت284هـ) – ابن خرداذبة (ت300هـ)	– ذكر رحلته اليعقوبي في كتابه البلدان والمسالك والممالك لابن خرداذبة ومروج الذهب للمسعودي – ذكر رحلته إلى بحر قزوين ابن خرداذبة في المسالك والممالك – كتبها أبو زيد السيرافي في سلسلة التواريخ وذكرها المسعودي في مروج الذهب – ذكرها أبو زيد السيرافي سلسلة التواريخ، والمسعودي في مروج الذهب – من مؤلفاته الرحلية: كتاب البلدان وكتاب فتوح المغرب – من أشهر مؤلفاته (المسالك والممالك)
الرابع الهجري العاشر الميلادي	– أبو زيد البلخي (ت322هـ) – ابن فضلان (ت309هـ) – قدامة بن جعفر (ت337هـ) – المسعودي (ت346هـ) – ابن حوقل (ت331هـ) – أبو دلف (مسعر بن مهلهل) (ت585هـ) – المقدسي (ت390هـ)	– من أهم مصنفاته: مصالح الأبدان والأنفس وكتاب (صور الأقاليم) – رحلته إلى بلاد البلغار – كتاب الخراج وصنعة الكتابة – كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) – كتاب (رحلة ابن حوفل) – رحلته إلى الصين وصلت مقاطع منها في معجم البلدان لياقوت الحموي وأورد بعضها ابن نديم في الفهرست – أهم مصنف له: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

(*) تمت صناعة هذا المسرد بالاعتماد على ما جاء في كتاب أدب الرحلة لفؤاد قنديل، من ص85 إلى ص549.

الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي	– البيروني (ت362هـ) – ابن بطلان (ت440هـ) – أبو عبيد البكري (ت487هـ)	– من أشهر كتبه الرحلية (الهند الكبير) أو ما يعرف بـ: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة – من مصنفاته (دعوة الأطباء) – كتاب (معجم ما استعجم)
السادس الهجري الثاني عشر الميلادي	– أبو بكر بن العربي (فقيه مالكي) (ت468هـ) – الإدريسي (ت493هـ) – أبو حامد الغرناطي (ت473هـ) – أسامة بن منقذ (ت488هـ) – ابن جبير (ت540هـ) – العروي (ت611هـ)	– كتاب (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة) – أهم مصنفاته: "نزعة المشتاق في اختراق الآفاق" – أهم كتبه (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب) وكتاب (المغرب من عجائب المغرب) – كتاب (الاعتبار) – كتاب (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) – كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات
السابع الهجري الثالث عشر ميلادي	البغدادي عبد اللطيف (ت629هـ) ياقوت الحموي (ت626هـ) ابن سعيد الأندلسي (ت685هـ) العبدري (ت688هـ)	كتاب "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث بأرض مصر" كتاب معجم البلدان كتاب المُغرب في حلى المغرب كتاب رحلة العبدري أو الرحلة المغربية
الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي	أبو الفداء (ت738هـ) التجاني (فقيه تونسي) (718هـ) ابن بطوطة (ت776هـ) ابن خلدون (ت808هـ)	كتاب تقويم البلدان كتاب رحلة التيجاني كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

رابعا. للتطبيق:

النص الأول: يقول المقديسي (ت390هـ) عن منهجه المعتمد في رحلته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

أما بعد فإنه مازالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه وهو ذكر الأقاليم الإسلامية، وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة... واختلاف أصل البلدان في كلامهم وأسواقهم... ومذاهبهم ومكاسبهم وأوزانهم، وصفة طعامهم وشرابهم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم... وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر ويحضى به كل تاجر.

وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد.

فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة، وما بقيت لي خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها... حتى استقام في ما ابتغيه في هذا الباب"

فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص271.

النص الثاني: جاء في رحلة ابن جبير (ت626هـ)، المعروف باسم "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" في حديثه عن دمشق.

دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها، قد شملت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت في موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منعتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين،

ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض يحي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلموا إلى معشر للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب، أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة بالقمر... وامتدت بشرقيها غواطتها الخضراء امتداد البصر... والله صدق القائلين فيها: "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها تحاذيها"

فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص400.

1- حدد معالم منهج المقديسي في جمع مادته الرحلية من النص الأول.

2- استنباط سمات الخطاب الرحلي من النص الثاني.